من تراب الطريق

(٤٧٨) الحكمة ضالة العقلاء(*)

ربما قرأ كليلة ودمنة كثيرون ، ولكن من تأمّلوها قليلون .. مع أنه ورد فى تقدمتها التى سطرها «بهنود بن سحوان» المعروف بعلىّ بن الشاه الفارسى ، أن بيدبا الفيلسوف الهندى حين صنف هذه الرسالة لدبشليم الملك وجعلها على ألسن الحيوانات والطيور ، قد قصد بها تنزيه الحكمة التى حوتها ، بأن جعل ظاهر الكلام لهوًا للعوام والخواص ، وباطنه رياضة لعقول الخاصة .. فصار الحيوان لهوًا ، وما ينطق به حكمةً وأدبًا !

من القصص التى يمر عليها الناس مَرّ الكرام ، حكاية الثور الأبيض الذى تحالف وتآمر مع الأسد ، وساعده على التهام الثور الأسود .. وهو يمنّى نفسه بأن يخلو له الجو باغتيال غريمه الأسود ، فتأتيه الزعامة هينة مقبلة ساعية إليه ما دام المجال قد خلا من منافسه ، وصار هو بلا منازع ينازعه ، أو منافس يطاوله .. جرت الأمور على ما أحبه وأراده الأسد الذى أتى على الثور الأسود والتهمه التهامًا ، ولكن أحدًا لم يدرك مغزى صرخة الثور الأبيض الذى استبان له فى لحظة كَشْف ، أن الدور قد جاء عليه هو ليلتهمه الأسد .. أو كما قيل : « لقد أُكلت حين أُكل الثور الأسود! » .

قليلون هم من تعلّموا الحكمة التى تعلّمها الثعلب من رأس الذئب الطائر ، وقليلون من توقفوا عند ما نقله الدكتور نصر حامد أبوزيد عن أحد المفكرين الألمان فى عصر النازى .. قال المفكر الناعم بتوحده فى عالمه ،

(*) المال ١٩/٨/٢٠١٠ .

المنكفئ على ذاته ، الذى لا يعنيه شىء مادام لا يمسّه : « حين بدأ القبض على «اليهود» لم أهتم .. فلست يهوديّا ، وحين بدأ القبض على «الشيوعيين» لم أهتم .. فلست شيوعيا ، وحين بدأ القبض على «المعارضين» لم أهتم .. فلم أكن معارضا ، وحين أتوا للقبض علىّ لم يكن هناك أحد ليدافع عنّى » .

اغتيال الدول أو الأوطان فرادى شبيه باغتيال الأشخاص فرادى .. تفقد الدول أو الأوطان قوتها وتأثيرها ومناعتها ، حين تفرط فى تساندها مع القريبين إليها ، فتؤخذ واحدًا وراء آخر ، أو تؤكل قضمةً وراء قضمة .. كان هذا حال البلدان الأوروبية فى بدايات موجات الهجوم الهتلرى النازى عليها واحتلالها تباعا ، ولم تفق أو تنتفض للخطر الداهم إلاّ وجيوش النازى تجتاح فرنسا بعد أن سقطت الدول الأوروبية أمامها تباعا ، وهكذا كان سقوط الأقطار أمام موجات المغول وجيوش التتار ، وها نحن نرى أن «البلقنة» صارت تطبيقا دوليا لمنطق فرق تسد .. وينسى الناس بسرعة أن الشام كانت وحدة واحدة قبل أن يجرى بلقنتها إلى سوريا ولبنان والأردن وفلسطين التى أخذها الغراب وطار ! وينسون أن المنطقة العربية بأسرها قد جرت بلقنتها فى السابق ، وتجرى محاولات بلقنة المتبقى منها فى الحاضر .. إنْ لم يكن بالتفتيت الإقليمى إلى دويلات وأقطار وإمارات ، فبالتفتيت الطائفى أو العرقى أو المذهبى لتتحول الأمة إلى كيانات مبعثرة .. فى السابق جرت بلقنة الإمبراطورية العربية العباسية ثم العثمانية ، وتفتيت ما بقى من هذه الأخيرة ، وقضوا على وحدة الدولة الكبيرة التى كانت تضم مصر والسودان والشام والحجاز .. ثم استداروا إلى شبه الجزيرة العربية وما حولها ففتتوها إلى «محميّات» و« إمارات» و «دويلات » ، وقسموا اليمن إلى

جنوب وشمال ، مثلما جرت من زمن «بلقنة «المغرب العربى إلى ليبيا وتونس والجزائر والمغرب ، وجعلت سياسة «البلقنة» تثير مشكلة الصحراء الغربية والبوليساريو ، وتوقظ العصبيات والطائفيات والعرقيات والإقليميات فى كل ربوع الوطن العربى الكبير ، وتشعل ما بين السنة والشيعة ! وهاهم العرب ينسون أو يتناسون أن وحدة وادى النيل قد انفصمت إلى مصر والسودان ، ثم لا يتعظون فيغفلون عن الفصم بين شمال وجنوب السودان الجارى الآن على قدم وساق ! ولا يتفطنون إلى نوايا العبث فى الوحدة المصرية بإثارة الطائفيات وصناعة الاحتقانات لشطر الأمة ودفعها إلى مصير بائس لا تحمد عقباه !!

ظنى أن حالنا وحال العرب اليوم ، كحال المفكر الألمانى الذى ظل يسلت نفسه وينسلخ من المسئولية ، مرة وراء مرة ، حتى أفاق وقد صار الدور عليه ، ولم يعد يوجد من يحميه أو يعاضده أو يقف إلى جواره. ولولا خوف إساءة الفهم أو الإغضاب ، لتمثلت بخيبة الثور الأبيض الذى لم يدرك أن الأسد سوف يرتد إليه ليلتهمه بعد أن التهم من تصور أنه يزيحه من طريقه لتنصرف إليه القيادة والرئاسة بلا نظير ولا معوق ولا منافس !

ترى كم من البلايا تلم بنا من جراء الغفلة وقصور الفهم وغياب التفطن ، مع الإغراق فى طلب التصدر والوجاهة والانفراد بالصولة حتى فى التفاهات ؟!

*****